الفصل الثامن والعشرون

الزواج

الزواج ناموس من نواميس الطبيعة، وسر من أسرار الأديان كلها، وقد وضعت له حدود، وعينت له روابط، وكتبت فيه المقالات المطولة والكتب الضخمة الحجم. فلسنا نتعرض بعد ذلك كله للكلام عن الزواج من حيث هو، بل نحن لا نريد أن يخلو هذا الكتاب عن فصل في موضوع الزواج بعد أن ضمنّاه فصولا في الولد، والرجل، والبنت، والمرأة. وبعد أن أكثرنا من الكلام علي العائلة، وكيف ينبغي أن تكون.

وقد كان الزواج علي عهد أجدادنا أهنأ كثيرا مما هو الآن، والسبب في ذلك أن أجدادنا كانوا يتزوجون علي قصد تأليف العائلة، وتربية الأولاد. أما نحن فإننا نتزوج لكي... نتزوج.

وانظر إلى الزواج في هذه الأيام، فهو في الغالب علة الشقاء، وسبب التعاسة، حتى لقد كتب أحد الشعراء في مطلع قصيدة له:

من يردها مروج فليبادر يتزوج

ونحن لا نقصد بهذا الكلام إلى التنفير من الزواج، والتحريض علي الابتعاد عنه. لا.. فإننا كنا ولا نزال في مقدمة الداعين إليه، المحرضين عليه. لأنه يسومنا أن نرى فتاة قاعدة في البيت، وشابا يقتل الأوقات في القهوة، وما عدا ذلك فإن الزواج أشرف الأعمال التي يقوم بها المرء وأسماها، فهو لذلك أشدها خطارة، وأعظمها شأنا.

ومن يعد بالذكر إلى مقالاتنا المنشورة في مجلة الراوي، وجريدة الأهرام فيما يختص بالزواج، ويذكر العاصفة التي حاجتها بنات الإسكندرية خاصة علي "ثعلبية" بسبب مقالة قعود البنات التي في العدد الصادر في يوم ٢٥ أكتوبر من عام ١٨٩٧م من جريدة الأهرام، يدرك إلى أي حد نَجل قدر الزواج، ونحترم المتزوجين.

علي أننا مع ذلك كله لا نخشى أن نقول أن التربية التي يجري عليها "المتفرنجون" من الشرقيين قد أقامت حائلا عظيما بين العزوبة، والزواج. حتى لقد أصبح الزواج بمثابة حصن محصور يلتمس الذين فيه الخروج منه، ويريد الذين هم خارج عنه الدخول إليه "ولكنهم لا يجسرون".

ونحن لا نتعمد وصف الحالة وصفا مدققا، والإحاطة بأطراف الأسباب التي صيرت الزواج أمرا عسيرا، وجعلت البنات في البيوت قاعدات، والشبان جالسين في القهاوى. بل نكتفي الآن بالإشارة إليها، تاركين بيان بعضها إلى الفصل التالي الذي سيجئ بعنوان "أخلاق وعادات"، مستلفتين أنظار الشرقيين إلى الكلام الآتي مما عربناه عن فصل للفيلسوف إسكندر بن إسكندر دوماس الفرنسوي، وقد تخيل أنه ذو ولد ذكر، وأن ابنه بلغ سن الحادية والعشرين – وهو سن الرشد عندهم– فأحب أن يعظه بما يكون له تبصره وعبرة. حتى أذا بلغ سن السادسة والعشرين –وهو السن التي تباح فيها للرجل والفتاة حريتهما في الاقتران بمن يختارانه– يعرف أن يختار المرأة الصالحة له، وأن يسير معها علي الخطة التي تكفل بهناء الحياة، والمعيشة الراضية. وهو:

"لو كان لي ولد ذكر لكنت أبذل عليه النفس، والنفيس في سبيل تأديبه، وتعليمه، وتثقيف أخلاقه، وتخريجه في أبواب الحكمة وفنونها. حتى أذا أتقن ذلك، وبلغ مبالغ الرجال قدّته بيدي إلى قمة جبل عال، وخاطبته هكذا:

إنك قد وعيت من العلوم والفنون ما يجهله عدد عديد من الناس، وهذا لك –ولا ريب– كنز مكتسب تزيده بقليل من الدأب والاجتهاد، فكن فيه ورأيك، وانته به إلى هواك، فليس علي هذا مدار الأحوال، ولا عنده تحط الرحال، وإنما هو لك بمثابة حقل ترتزق منه، وعليك يعود خيره وشره. إنما المهم هو أعظم من هذا، وفوق ما تتصور، فأنه ليس من صنعة اليد ولا سعة العلم، وهو ما تعقد عليه ضميرك؛ أعني معرفتك غيرك، وقدر نفسك.

وهذه سنتك الحادية والعشرون قد بلغتها، وهذا هو اليوم العظيم الذي فيه تعلن شرائع الإنسانية كفاءتك لأن تكون قائدا لنفسك، مدبرا لأعمالك، حرا في تصرفك حتى فيما يخالف تصرف أبيك، وتطلق لك ما تشتهي من الزواج، أو تركه منذ بلوغك السنة الخامسة والعشرين من عمرك. ولا جرم أن في هذا لدليلا واضحا علي أن تلك الشرائع ترى سياسة المرأة من أصعب ما يعرض للرجل في أيامه. ولقد لقنتك العلوم والمعارف، وسهلت أمامك سبل الحياة، فلم يبق علي من حقوق البنين علي آبائهم إلا أن أسهل عليك أمر هذه الصعوبة، فأرعني السمع، وعلي في قلبك ما أقوله لك، وأعلم أنه هو الحق بعينه، وإن كان في كلام قليل.

تعلم يا بني أنك لست مرُكبا فقط من دم، وعضل، وعروق، وعظام. وأنه لسوف يأتيك يوم ينحل فيه هذا المركب، ولا يبقي لك من هذا الجسم المنظور شيء، فلو كان هذا كل ما تملك علي الأرض لكنت أدنى ما عليها من المخلوقات. وتدري أيضا أن لك حياة أخري غير التي ذكرنا بها ترتفع عن الخلائق الأخر: وهي أنك تفكر، وتذكر، وتفهم، وتحكم، وتأسف، وتأمل، وتحب، ولا تبغض والحمد لله. ولك خلاف ذلك ألوف وجدانات تتركب، وتتسلسل، وتعيش بشخص منك آخر غير منظور: وهو وإن يكن لا حد له،

فإنه يحويه منك هذا المركب المحدود. فليس إذًا وجودك محصورا فيما نراه منك، لكنه يتناول شيئا آخر هو خارج عنك، كما أنك لست عضوا مخصوصا بالخليقة الهيولية التي لك معها تعلق محسوس، ولكنك مشترك أيضا في خليقة أخرى غير محسوسة التركيب: هي التي ترتب هذا العالم بالعقل والوجدان، وهي التي نسميها بالنفس. فبالخليقة الأولى ترى نفسك شبيها بكل ما يولد، ويعيش، ويموت. وأما بالثانية فبعكس ذلك، فإنك تشعر في نفسك بأنك أرفع منزلة من كل هؤلاء.

ولقد أتى عليك واحد وعشرون عاما كلفتك فيها وأدبتك بأداب الدين، والعلم، والتربية، فعلمتك أن لا إله إلا الله الذي أرشدتك إلى عبادته، وإجلاله. وعرفتك ما الوالدان، وما لهما عليك من الحقوق؟ ونهيتك عن أن تفعل بقريبك ما لا تريد أن يفعله هو بك، وعلمتك أن لا تبغضه إذا لم تكن تحبه، وأن تحترمه كنفسك، وتخف ما استطعت لمعاونته وارفاده، فإن التكافل البشري أول شيء تتطلبه منك الإنسانية. وقد نشأت والحمد لله حميد الصفات، لم تسرق لقريبك مالا، أو متاعا. ولم تعد عدة لأوفيت بها، وما برحت إلى الآن عفيف اللسان والقلب، طاهر النفس والذيل، ثابت الجأش أمام صدمات جيوش الهوى، وهذا ما أرجو بقاءك عليه إذا رغبت في أن تعيش منفردا. وأما إذا أحببت أن تفعل ما يفعله غيرك من الرجال فإياك أن تطلب الحب إلا في الزواج، فإن الحب في الزواج مقرون بالاحترام، والحب بلا احترام لا يكون إلا ضعيف البناء، قصير البقاء.

ومع ذلك فقد ترى القالة من حولك يقولون أن رجلا بلغ درجات المدنية يجب عليه أن يكون خبيرا بأحوال النساء قبل زواجه؛ ليتبوأ من معرفتهن مكانا يحسن به العشرة مع التي سيقسمها له القدر، تحاميا لما يقع بين المتخالطين من

الخلاف إذا كان أحدهما علي غير بينة من حال صاحبه، فأعلم يا بني أن ما تسمعه من مثل هذه الأقاويل ليس بذي صدق، إنما ذلك مجرد خدعة يخدع بها الرجل نفسه، ظانا أنه يختبر النساء بما يعرف من فراسة، أو هيئة. وليس بذلك تختبر النساء، ولا بشيء آخر، فإن النساء مهما كشفن لك من أسرارهم فإنهن يبطن فوق ذلك كثيرا. وأعلم أن المرأة التي تختبرها إما أن تكون من ذوات الفجور فتحيد بك عن سبيلك، أو من ذوات العفاف فتحيد بها عن سبيلها، فلا تستفيد من الأولي إلا أن تحتقر النساء، ومن الثانية ألا أن تحتقر نفسك. وإذا لقيت امرأة (قبل زواجك، أو بعده) فإذا كانت قبيحة الخصال فأجهد بتحسينها، وإذا كانت حسنتها فإياك وتغييرها، فلا أجمل من منظر امرأة مهذبة الأخلاق.

فإن رغبت في الزواج فاذهب واتخذ لك امرأة من أية رتبة كانت من الخاصة، أو العامة. غنية، أو فقيرة. بشرط أن تكون طاهرة النية، نزيهة النفس، سليمة القلب، طليقة الوجه، محبة للدأب، بعيدة عن المجون والخفة، فإنهما في المرأة دليل الفساد وعلته. وقبل أن تختار الزوجة انظر بعين النقد إلى أهلها، وذويها، فإنهم أكبر دليل عليها، وقلما كذب هذا الدليل.

وإذا اتخذت لك زوجة فقبل أن تصير والدة يجب عليك أن تفهمها ما الوالدية. وأين مكانها من الأسرة؟ وبالتالي من الهيئة الاجتماعية، وكن لها مثالا تستفيد منه، وليكن عملك مقرونا بالاحترام لشخصها، لكن لا تفرط في الاحتفاء بها والتعظيم، وليكن ذلك علي قدر ما يليق بمقامها الزوجي، ومكانها الوالدي.

وأعلم أن من سن شريعة، أو فرض قانونا ولم يعمل بحسب ما سن، أو فرض فهو مراء ذا وجهين، أو مختل الشعور ذو جنة، لا يستقبلها إلا ظهريا؛

فلذلك يجب عليك أن تكون ممتنع القياد علي النساء، كما تريد أن تكون زوجتك ممتنعة علي الرجال، كي لا تفتح لها بابا للعمل والاعتذار... وكشف زوجتك مكشفة الأمين بكل أسرار حياتك، حتى إذا مال عليك ساقي المنون بكأسه وأولادك صغار لا يقومون علي سياسة أنفسهم، تشرب تلك الكأس مطمئنا بأن زوجتك لا تحتاج إلى خلف لك يدير صغارك من بعدك، بل تقوم هي بأعباء ذلك المنصب الشاق، فتكون لهم أبا وأما معا.

وإياك أن تنسى أنك باتخاذك تلك المرأة مساعدة ورفيقة لك الحياة بطولها، تعاهد من نفسك أن تقوم لها مقام الزوج، والصديق، والأخ، والأب. فكن كما عاهدت، وكن معها لين العريكة، رقيق الجانب، بحيث لا تدع لغيرك سبيلا لأن يحل من قلبها محلا مهما كانت صفات ذلك الغير وأخلاقه"